

المشكلة الجزئية الثالثة : في اللغة و الفكر

العنصر : علاقة اللغة بالفكرة

السؤال : هل يمكن الفصل بين الفكر و اللغة ؟

المقدمة :

تعرف اللغة بأنها نظام من الرموز الوضعية الإصطلاحية التي بدعها الإنسان للتفاهم و التواصل مع غيره والتعبير عن أفكاره ، في حين يعرف التفكير بأنه نشاط ذهني يقوم على المعاني و التصورات ويتخذها كأدوات للتحليل و التركيب و التفسير، غير أن البحث في **علاقة اللغة بالفكرة** كان من بين المشكلات اللغوية التي اهتمت بها الدراسات اللسانية الحديثة لذلك فقد حظيت باهتمام العديد من المفكرين وال فلاسفة و علماء اللغة نتج بشأنها اختلاف في المواقف و تباين في التصورات لا سيما حول طبيعة العلاقة القائمة بينهما إذ يرى البعض منهم بأن الفكر متصل باللغة و أنهما يشكلان وحدة عضوية إذ لا يمكن تصور أحدهما دون الآخر فيما يذهب آخرون إلى القول بأن اللغة عاجزة عن إستيعاب كل أفكارنا و أن العلاقة بينهما إنفصالية وفي ظل هذا الجدل القائم يثار التساؤل التالي : هل **علاقة اللغة بالفكرة** علاقة إنفصالية أم علاقة إتصال ؟ وبعبارة أخرى هل الفكر متميز و منفصل عن اللغة أم هما عملية عضوية واحدة ؟

العرض (محاولة حل المشكلة) :

1 - عرض منطق الأطروحة : يرى أنصار الاتجاه الثاني (الحسي) و في

مقدمتهم الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون بأن هناك إنفصال و تمييز بين الفكر و اللغة و أنه لا يوجد تناسب بين عالم الأفكار و عالم الألفاظ حيث أن ما يملكه الفرد من أفكار و معان يفوق بكثير ما يملكه من ألفاظ و كلمات مما يعني أن اللغة لا تستطيع أن تستوعب الفكر أو تحتويه و من ثم فهي عاجزة عن التبليغ أو التعبير عن هذا الفكر

و يستند أنصار هذا الاتجاه في تبرير موقفهم على الحجج التالية :

الحججة الأولى : إن الفكر سابق أو متقدم عن اللغة بحكم أن الإنسان يفكر بعقله قبل أن يعبر بلسانه فهو يفكر ثم يجد في البحث عن الكلمات المناسبة ليعبر عن أفكاره و ما يعزز هذا أكثر هو أنه كثيراً ما يتزدد الكاتب أو المتكلم أثناء الكتابة أو الكلام

باحثًا عن العبارات المناسبة فلو كانت الأفكار هي ذاتها الكلمات لما تردد الإنسان في التعبير فالتجربة الذاتية التي يعيشها كل إنسان تكشف أنه كثيراً ما يشعر بسيل من الخواطر والأفكار تتزاحم في ذهنه لكنه يعجز عن التعبير عنها لأنه لا يجد إلا الفاظ محدودة لا تكفي لبيانها و على هذا الأساس كانت اللغة عاجزة عن إبراز المعاني المتولدة عن الفكر إبرازاً تماماً و كاملاً

هذا و لقد أشار الفيلسوف اليوناني **أفلاطون** قديماً إلى أسبقيّة الفكر عن اللغة ذلك أن الأفكار في نظر هذا الأخير مصدرها عالم المثل في حين تنتهي الألفاظ إلى العالم الحسي و بما أن العالم الأول أفضل من العالم الثاني فإن الفكر أوسع من اللغة ، و يرى **ديكارت** بأن اللغة والفكر من طبيعتين مختلفتين فاللغة ذات طابع مادي حسي أما الفكر فهو ذو طابع روحي ، أما **شوبنهاور** فيقول : ((إن الأفكار تموت لحظة تجسيدها في الكلمات)) ويعني بذلك أن الفكر حيوي و اللغة جامدة إلى درجة تموت فيها الأفكار بينما يقول الجاحظ : ((إن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ إن المعاني مبسوطة إلى غير نهاية و أسماء المعاني محدودة ومعنودة)) أما أبو حيان التوحيدي يقول : ((ليس في قوة الفكر أن تملك المعاني)) و هذا ما نجده أيضاً عند برغسون الذي يقول : ((أعتقد أننا نملك أفكاراً أكثر مما نملك أصواتاً)) و يقول أيضاً : ((اللغة عاجزة عن مسايرة ديمومة الفكر)) و بالتالي فتطور المعاني أسرع من تطور الألفاظ

الحجّة الثانية : ثم إن اللغة وضعت أصلاً للتعبير عما تواضع أو اصطلاح عليه المجتمع بهدف تحقيق التواصل و تبادل المنافع فهي لا تعبر إلا على ما تعارف عليه الناس (أي الناحية الاجتماعية للتفكير) و يبقى داخل كل فرد جوانب عميقه خاصة و ذاتية من عواطف و مشاعر لا يستطيع التعبير عنها لذلك كانت اللغة عاجزة نقل مشاعرنا و أحاسيسنا للآخرين و هذا الأمر لا يرجع حسب برغسون إلى قصور الفكر بل بالعكس يكمن في اللغة حيث أنها لا تعطي المعنى الكامل للتفكير و لهذا قال الشاعر بول فاليري : ((أجمل الأفكار هي تلك التي لا تستطيع التعبير عنها)) فالفكرة تربط بالشعور و هي تحمل كل مضامينه و معانيه العميقه من إنفعالات و عواطف كالحزن و السعادة و الحب و عندما يريد المرء التعبير عنها و إبلاغها للآخرين يخرجها في شكل عبارات لفوية رمزية خالية من الشعور و الحياة و هو ما يجعل اللغة عاجزة عن تبليغ أفكارنا و من هنا لجأ الإنسان إلى وسائل

أخرى كالشعر والفن والموسيقى وغيرها من أشكال الفن من أجل التعبير عن مشاعره وأحاسيسه

الحجـة الثالثـة : و فضلاً عن ذلك فإن ماهية الفكر فردية و ذاتية و هو تلقاني و حر و غير خاضع لقواعد نحوية و صرفية كما أنه فيض من المعانـي و التصورات المتصلة يتميز بالديمومة و التجدد فهو لا يتوقف عن الجريـان و غير محدود أما اللغة فهي ظاهرة إجتماعية و موضوعية عبارة عن ألفاظ و كلمـات منفصلة ساكنة محددة الإشارة (أي خاضعة لقواعد نحوية و صرفية) إلى ما تعارف عليه إجتماعيا (أي خاضعة لقوانين إجتماعية) و عندـذ فسبـك الأفـكار في قوالـب لغـوية جـاهـزة يـفقـدـها حـيـوـيـتـها و أـصـالـتـها بل إن الكلـمات تعـيق تـطـورـ الأـفـكارـ و تـشوـهـها لـذـاـ قـيلـ : ((الأـلـفـاظـ قـبـورـ المـعـانـيـ)) و يقول لـامـارـتـينـ : ((إذاـ كـانـتـ كـلـمـاتـيـ منـ ثـلـجـ فـكـيفـ تـهـويـ فـيـ دـاخـلـهاـ النـيـرانـ))

الـفـقـد : لقد بالـغـ أـنـصـارـ هـذـاـ الـإـتـجـاهـ فـيـ مـوـقـفـهـمـ حـيـنـماـ قـامـواـ بـالـتـمـيـزـ بـيـنـ اللـغـةـ وـ الـفـكـرـ وـ الـفـصـلـ بـيـنـهـمـ فـصـلـاـ تـامـاـ لـأـنـهـ إـذـاـ كـانـ الـفـكـرـ سـابـقـ عـنـ اللـغـةـ مـنـ النـاحـيـةـ النـظـرـيـةـ وـ الـمـنـطـقـيـةـ فـهـوـ لـيـسـ سـابـقـ عـنـهـ مـنـ النـاحـيـةـ الزـمـنـيـةـ بـدـلـلـ أـنـ الـإـنـسـانـ يـشـعـرـ بـأـنـهـ يـفـكـرـ وـ يـكـلـمـ فـيـ نـفـسـ الـوـقـتـ كـمـاـ أـنـهـ بـالـغـواـ فـيـ تـمـجـيـدـ الـفـكـرـ وـ الـتـقـلـيلـ مـنـ شـأـنـ الـلـغـةـ الـأـمـرـ الـذـيـ جـعـلـ الـفـكـرـ نـشـاطـاـ أـخـرـسـاـ وـ الـوـاقـعـ يـوـكـدـ أـنـ التـفـكـيرـ لـاـ يـتـمـ بـدـونـ لـغـةـ فـالـفـكـرـ بـدـونـ لـغـةـ مـجـرـدـ شـعـورـ باـطـنـيـ لـاـ مـعـنـىـ لـهـ (عدمـ) ثـمـ أـنـهـ لـوـ كـانـتـ الـلـغـةـ عـاجـزـةـ عـلـىـ التـعـبـيرـ عـنـ جـمـيعـ أـفـكـارـنـاـ فـالـعـيـبـ قـدـ لـاـ يـكـوـنـ فـيـ الـلـغـةـ بـلـ فـيـ مـسـتعـملـهـ الـذـيـ قـدـ يـكـوـنـ فـاـقـداـ لـثـروـةـ لـغـوـيـةـ تـمـكـنـهـ مـنـ التـعـبـيرـ عـنـ كـامـلـ أـفـكـارـهـ بـدـلـلـ أـنـ الـمـعـنـىـ الـوـاـحـدـ قـدـ تـعـبرـ عـنـهـ بـعـدـ الـأـلـفـاظـ وـ الـكـلـمـاتـ خـاصـةـ الـأـدـيـبـ الـذـيـ يـمـتـلـكـ ثـروـةـ لـغـوـيـةـ أـكـثـرـ مـنـ بـقـيـةـ النـاسـ كـمـاـ أـنـ الـدـرـاسـاتـ النـفـسـيـةـ الـمـعاـصـرـةـ أـثـبـتـتـ أـنـ تـكـوـينـ الـمـعـانـيـ وـ الـأـفـكـارـ عـنـ الـأـطـفـالـ يـتـمـ فـيـ الـلحـظـةـ نـفـسـهـاـ مـعـ تـعـلـمـ الـلـغـةـ وـ إـكتـسـابـهـاـ وـ هـوـ مـاـ يـدـلـ عـلـىـ أـنـهـ يـتـعـلـمـ التـفـكـيرـ عـنـ طـرـيقـ الـلـغـةـ فـهـوـ يـفـكـرـ بـالـلـغـةـ وـ مـنـهـ فـحـضـورـ الـفـكـرـ يـسـتـلـزـمـ عـنـهـ حـضـورـ الـلـغـةـ وـ هـوـ مـاـ يـجـعـلـهـمـ وـ جـهـيـنـ مـخـتـلـفـينـ لـعـملـةـ وـاحـدةـ

2 - عرض نقض الأطروحة : يرى أنصار الاتجاه الأحادي (اللغوي) وفي مقدمتهم هاملتون ، هيجل و دولا كروا بأن اللغة و الفكر شيئاً واحداً (أي متطابقين) و لا أسبقيّة لأحدهما عن الآخر و هما متلاحمان متصلان مترابطان و يمثلان وحدة عضوية غير قابلة للابتعاد فلا فكر بدون لغة و لا لغة بدون فكر و بالتالي فلا يمكن تصور أفكار خارج إطار الكلمات

ويستند أنصار هذا الاتجاه في تبرير موقفهم على الحجج التالية :

الحججة الأولى : لا يوجد فكر بدون لغة أي أن اللغة هي التي تبرز الفكر و توضحه و تكشف معانيه و تطوره فهي التي تتحققه و تخرجه من حيز الكتمان إلى حيز التصريح فلو لا اللغة لم يبقى الفكر حبيس صاحبه لا يمكن كشفه و التعرف على حقيقته كما أن اللغة هي التي تصبّع الفكر صبغة إجتماعية موضوعية تنتقله من طابعه الإنفعالي الذاتي ليصبح معرفة إنسانية قابلة للانتقال بين الأفراد حيث يقول فيخته : ((إن اللغة تلزم الفرد في حياته و تمتد إلى أعماقه و تبلغ أخفى رغباته إنها الرابطة الوحيدة الحقيقة بين عالم الأجسام و عالم الأذهان إنها تجعل الأمة كلاماً)) و بالتالي فالتفكير بدون لغة يبقى حواراً صامتاً أي مونولوج داخلي بين الذات و نفسها و هذا ما قصدته أفلاطون قدّيمـا قـائلاً : ((الفكر لـغـة صـامـتـة)) أي أن التفكير هو حوار بين الإنسان و نفسه و الحوار جوهره اللغة

و بالإضافة إلى هذا نجد أنصار هذا الموقف يؤكدون على إستحالة التفكير بدون لغة حيث يقول هيجل : ((إن الرغبة في التفكير بدون الكلمات محاولة عديمة المعنى و الجدوى فالكلمة هي التي تعطي وجوده الأسمى والأصلح)) أي أن الأفكار لا يمكن أن توجد بدون لغة و لا يمكن للمعنى أن يستقيم ما لم يعتمد على اللغة ويقول أيضاً هيجل : ((اللغة و عاء الفكر)) أي أن اللغة و بحكم أنها تشكل أداة ضرورية لمزاولة النشاط الذهني فهي نسيج يتحكم في الوظائف العقلية من تذكر و تخيل و ذكاء و إدراك فهو واسطتها يقوم المرء بمختلف العمليات العقلية كالتحليل و التركيب و المقارنة و الإستنتاج أما أرسسطو فيقول : ((ليست ثمة تفكير بدون رموز لغوية)) أو كما يرى هييدغر بأن اللغة هي المسكن الذي يسكنه الفكر فلو لا اللغة لما كان يمكننا التعبير بما يدور في عقولنا من أفكار بينما اللغوي المعاصر إميل

بنيفيس يقول : ((إن التفكير ليس من الداخل في شيء و لا وجود له خارج عالم الألفاظ)) أما واطسون فيقول : ((التفكير هو ضرب من الكلام الصامت))

و هذا ما نجده أيضا عند سؤالين الذي يقول : ((لا توجد أفكار عارية مستقلة عن اللغة)) أما هاملتون فيقول : ((إن المعانى شبيهة بشرار النار لا تومض إلا لختفي و لا يمكن إظهارها إلا بالألفاظ)) و يقول لافيل : ((اللغة ليست ثوب الفكر بل هي جسده ... و في غياب اللغة لا يوجد فكر))

و منه فالإعتقاد بوجود نشاط فكري بدون لغة هو مجرد توهم لأننا عندما نفكر يعني أن نتحدث بصوت خافت و عندما نتحدث فإننا نفكر بصوت عالي هذا ما جعل ريفارول يقول : ((الكلام هو التفكير خارجيا و التفكير هو اللغة داخليا)) فنحن نفكر داخل مجال اللغة و ليس خارجه و هذا ما يجعل اللغة و مجال الفكر متطابقان و متساويان

الحججة الثانية : كما أنه لا توجد لغة بدون فكر لأن الكلمات و العبارات التي لا تدل على معانى و أفكار و تصورات هي في الحقيقة كلمات ميتة لا حياة لها لذلك يقول إدوارد ساوير في هذا الصدد : ((فالتفكير بالنسبة إلى اللغة يمكن تعريفه بأنه المضمون المستتر أو أعلى طاقة كامنة للكلام))

الحججة الثالثة : هذا و قد أكدت الدراسات في علم النفس أن الطفل يكتسب المعانى والأفكار و الصور حين يتعلم اللغة أي أنه يتعلم اللغة في نفس الوقت الذي يتعلم فيه التفكير و بذلك فالارتقاء اللغوي وثيق الصلة بالإرتقاء الفكري و ما يؤكد ذلك هو تجارب اللغوية الروسية فيغو تسكي التي أكدت أن نمو فكر الطفل و لغته يكونان متوازيين لمدة سنتين ثم يصبحان متطابقان بعد ذلك أي لهما نفس النمو مما يدل على وحدة اللغة و الفكر أي أن اللغة و الفكر شيئا واحدا كما أن فقدان اللغة يوازيه فقدان في التوازن النفسي و العقلي وهذا يستنادا إلى أبحاث قام بها علماء النفس التي أكدت إنحطاط الفكر عند فاقدى اللغة من المعوقين و بمجرد أن يتمكن هؤلاء من لغة معينة إشارية أو صوتية ينمو فكرهم نموا سريعا

و عليه فالعلاقة بين اللغة و الفكر هي علاقة اتصال و تداخل و لا يمكن فصل الواحد عن الآخر و في ذلك يقول هيجل : ((إنت تفكير داخل الكلمات)) أي أن التفكير ما هو إلا كلام يختفي وراء الصوت أما جورج غوسدروف فيقول : ((

التفكير صاح بالكلمات)) أما كودنياك فيذهب إلى القول : ((إن فن التفكير يرتد إلى فن إتقان الكلام)) و يقول أيضا : ((إن المعانى المجردة تتولد من الحواس فكل فكرة أصلها لفظة)) و هذا ما نجده أيضا عند ميرلوبونتى الذي يقول : ((

اللغة ليست علامة للتفكير مثلما أن الدخان علامة النار بل أنهما متداخلان يضم

أحد هما الآخر)) لذا قيل : ((الألفاظ حصون المعانى)) و ((الألفاظ قصور المعانى)) و قد شبه فريديناند دي سوسير الإرتباط بين اللغة و الفكر بورقة ذات وجهين الفكر ظهرها و اللغة وجهها فكما لا يمكن تمزيق الورقة دون ظهرها أو العكس فإنه لا يمكن عزل اللغة عن الفكر أو الفكر عن اللغة لأن الإنسان و من الناحية العملية يفكر بكلمات و يتكلم بأفكار ولهذا يقول واطسون : ((إنتا نفسك بلغتنا و نتكلم بفكernا))

النقد : حقيقة أن للغة خدمات جليلة تقدمها للفكر باعتبارها الواقع الذي يصب فيه لكن ذلك لا يفسر أن المقدرة اللغوية تتماشى بالضرورة مع المقدرة الفكرية فالشعراء والأدباء رغم ثروتهم اللغوية الهائلة إلا أنهم كثيراً ما يعجزون عن الإفصاح عن خواطرهم و التعبير عن تصوراتهم و أفكارهم و الطالب في الامتحان كثيراً ما تخونه اللغة في تبلیغ اجابتة للمصحح كما أنه من الناحية الواقعية يشعر أكثر الناس بعدم المساواة بين قدرتهم على التفكير (الفهم) وقدرتهم على التبلیغ فلو كانت اللغة تسخير حركية الفكر لما شعر المرء بعجزه عن التعبير و التبلیغ عن ما يختلج في أعماقه النفسية ثم أنه لو كان فعلاً بإمكانه اللغة التعبير عن كل ما يشعر به الإنسان فلماذا إذن يلجأ إلى الفن والموسيقى و الرسم لتبلیغ أحاسيسه فضلاً عن ذلك فإن اللغة رموز مادية خالية من الحياة بينما المعانى والأفكار هي أحوال شعورية و معنوية

التركيب : ومن كلا الموقفين يمكن القول بأنه حتى وإن كان الفكر في بعض الوضعيات سايبق عن اللغة فهذا لا يعني أنه أوسع منها أو أهم منها لأن الحقيقة هي أن اللغة و الفكر متداخلان متراابطان كل منهما يؤثر على الآخر و يتاثر به فلا معنى لأحد هما بمعزز عن الآخر لأن اللغة دون فكر هي مجرد حالة من الهذيان كما أن الفكر بدون لغة هو حالة وهمية وعندئذ فالتفكير يتحقق باللغة و اللغة تتحقق قيمتها بما تحمله من معانى فهما ورغم اختلافهما في الوجود والطبيعة إلا أن غايتهاما و دورهما واحد و هو تحقيق التواصل الإنساني و الاجتماعي

الخاتمة (حل المشكلة) : بناءاً على كل ما سبق نستنتج أنه و بالرغم من الاختلاف الموجود بين طبيعة كل من اللغة والفكر إلا أننا لا نستطيع تصور تباعد بينهما فلا توجد للفكر وسيلة لوجوده الفعلي سوى اللغة فهما يشكلان كلا متجانساً لا يقبل التجزئة و كل واحد منهما يكتسب قيمته من الآخر و هو ما يجعلهما متكاملين و في كلاهما تتحدد ماهية الإنسان باعتباره الكائن المفكر الوحيد كما أنه الوحيد الذي يمتلك لغة واعية تعبر عن أفكاره فحتى وإن تمكنا من الفصل بينهما من حيث الوجود و الخصائص إلا أنه يتعرّض علينا الفصل بينهما من ناحية التكامل فالإنسان و إن كان يعجز أحياناً عن تبليغ أفكاره و التعبير عن تصوراته إلا أن ذلك لا يبرر القول بوجود أفكار بمعزل عن الكلمات لأن الفكرة تتحقق بالكلمة و الكلمة تتحقق وجودها الفعلي بما تنتطوي عليه من معنى و أتفق مع ماكس مولر حين شبه التداخل بين الفكر و اللغة بالقطعة النقدية حينما قال : ((ليس ما ندعوه فكراً إلا وجهاً من وجهي القطعة النقدية و الوجه الآخر هو الصوت المسموع و القطعة شيئاً واحداً غير قابل للتجزئة))

dirassatidz.com

 **@dirassati1**